الجوانب الجدية
في حياة عمر بن أبي ربيعة

لقد أسلفنا القول في حب ابن أبي ربيعة وشعره، وقدمناه للقارئ في صورته التي ألفها الناس في حياته، وتمثلوها بعد مماته، فلم يبق إلا أن نقف قليلًا عند الجوانب الجدية من حياة ذلك الشاعر الغَزل الذي لم يره الناس إلا تبع نساء.

ولنعد مرة ثانية ما أشرنا إليه من قبل: فقد قلنا إن كثيرًا من حوادثه الغرامية من صُنع الخيال، وقد قبلناه على علاته، واكتفينا بتلك الإشارة عند التمهيد لأخبار الملاح؛ إذ كانت حوادث ابن أبي ربيعة التي أضيفت إليه تدلنا على شيئين: فهي أولًا علامة على أن المتقدمين أنسوا بروحه، وأسلموا قلوبهم لوحيه، فأبدعوا في ظِلال ذكراه ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر، والهوى الغلاب. وهي ثانيًا دليلٌ على أنه كان للمتقدمين مَيلٌ إلى القصص الغرامي وحظ من الإجادة فيه. فكان من الخير أن نستغلَّ تلك الباكورة القصصية ونحن نتحدث عمن هَوي هذا الشاعر من حسان النساء.

ومن العجيب أنه لم يلتفت أحد من القدماء ولا المُحدثين إلى حياة هذا الشاعر الجدية، ولم يخطر ببال باحث منهم أن الدنيا في أحداثها وتصاريفها وأعاجيبها قد تكون ألأم من أن تسمح لشاعر بأن يظل عمره يمرح ويلعب في ميادين الحب، وملاعب الجمال.

لقد عاش ابن أبي ربيعة سبعين سنة، وقد حدثونا أنه ودَّع لهوه وهواه بعد الأربعين، فيا ليت شعري كيف قضى الثلاثين الباقية، على فرض أنه أمضى أربعينه الأولى ناعم القلب، وادع الروح؟

ثلاثون سنة بلا لهو ولا عبث، ولا تذكُّر ولا التياع!

هذا والله كثير على شاعر روَّى شبابه بصهباء الرُّضاب، وقضى فوق ترائب المِلاح ليالي وأيامًا كانت كل لحظةٍ فيها خيرًا من ألف سنة مما تعدون!

أصحيح أن ابن أبي ربيعة لم يقل كلمة واحدة في بكاء شبابه، والتوجُّع من مشيبه، وأنه ودَّع الشعر وداعًا أبديًّا بعد الأربعين؟ أم كانت له مواقف شعرية لها لونٌ غير ذلك اللون المشرق، وأن الرواة نسوها أو تناسوها؛ لأن هواهم كان يقضي ببقاء تلك الشخصية الجذابة في مرحها ولهوها لتظل متعة بين نكت السَّمَر، وأطايب الحديث؟

نحن إذًا لا نعرف شيئًا عن الفصل الأخير من تلك الرواية؛ لأنهم أسدلوا الستار بعد انقضاء الفصل الثاني حين حلف الشاعر لا يقول بيتًا إلا أعتق رقبة. فلنبحث أكان الفصل الأول الذي مثَّل لنا الشاعر وهو يعبث في مناسك الحج صحيحًا في جملته، أم كان فصلًا غير محكم الوضع، ولا متقن التصوير، أراد واضعه أن يبرز ما فيه من الجوانب الغرامية، وأن يغفل الجوانب الجدية، لحاجة في نفس يعقوب؟!

أكتب هذا وأنا أذكر كلمة الثريا، وقد توسل إليها رسول عمر أن تعطف عليه، فقد قالت:

«ابن أبي ربيعة فارغٌ ونحن في شُغل».

وهي كلمة نقرؤها باسمين لأنها كلمة نسائية مألوفة من ربات الحِجال، فإنه إذا فرغ عمر وشُغلت الثريا، فقد حق لنا أن نرتاب فيما نُسب إليه من الفراغ!

ومن العجيب أن هذا الشاعر الذي اتفق القدماء والمحدثون على فراغه وبطالته هو صاحب هذا البيت:

كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

وهو بيت عميق الأثر في النفوس العربية، وطالما كان لهبًا تقبسُ منه عزائم الثائرين -وهو كذلك صاحب هذين البيتين:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرةً واحدةً ... إنما العاجز من لا يستبد

والقارئ يعلم أن خصوم البرامكة دسُّوا إلى الرشيد من غناه بهذا الشعر فثار بالبرامكة، ومزقهم كلَّ ممزق، بفضل روح عمر بن أبي ربيعة الذي ظنوا شعره بردًا وسلامًا، وفيه لو يعلمون أنفاس السَّعير!

ولقد حدَّثونا أن أخاه الحارث كان ينهاه عن قول الشعر، فيأبى أن يقبل منه، وأنه أعطاه ألف دينار، على ألا يقول شعرًا، فأخذ المال وخرج إلى أخواله بِلَحْج وأبين[1] مخافة أن يهيجه مُقامه بمكة على قول الشعر، فطرب يومًا فقال:

هيهات من أمةِ الوهاب منزلنا ... إذا حللنا بسيف البحر من عدن[2]

واحتلَّ أهلك أجيادًا فليس لنا ... إلا التذكُّر أو حظ من الحزن[3]

لو أنها أبصرت بالجزع عبرته ... من أن يغرِّد قمريٌّ على فنن[4]

إذًا رأت غير ما ظنت بصحابها ... وأيقنت أن لحجًا ليس من وطني

ما أنسَ لا أنسَ يوم الخَيف موقفها ... وموقفي وكلانا ثَمَّ ذو شجن

---

(١) لحج وأبين من مخاليف اليمن.

(٢) سيف البحر -بكسر السين- هو ساحله.

(٣) أجياد: موضع بمكة.

(٤) القمري -بضم القاف-: ضرب من الحمام، والأنثى قمرية، والجمع قماري.

وقولها للثريا وهي باكية ... والدمعُ منها على الخدين ذو سنن[1]

بالله قولي له في غير مَعتبة ... ماذا أردت بطول المكث في يمن

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها ... فما أخذت بترك الحج من ثمن

وأن القصيدة سارت حتى سمعها أخوه الحارث فقال: هذا والله شعر عمر، قد فتك وغدر!

وأنا لا أصدق أن ابن أبي ربيعة ذهب إلى أخواله باليمن ليفر من نساء الحجاز، ولا أقبل أن يكون ابن أبي ربيعة قبل الرشوة من أخيه ليتوب يومًا أو يومين قبل أن يموت!

فلا بدَّ إذًا أن يكون قد ذهب إلى اليمن في شأن من الشئون الجدية؛ ولكن ما هو هذا الشأن؟ نحن لا نعرفه لأن الرواة لم يحدثونا عنه؛ إذ كان من هواهم أن يخترعوا لهذه القصيدة سببًا طريفًا يضاف إلى ما له من شهيِّ الأقاصيص.

وقد حدثنا صاحب الأغاني أن مسعدة بن عمرو أخرج عمر بن أبي ربيعة إلى اليمن في أمرٍ عرض له، وتزوجت الثريا وهو غائب، فليتنا نعلم أي غرض هذا الذي أخرج من أجله عمر بن أبي ربيعة إلى اليمن؟ فقد يكون أنشأ هذه النونية في هذه السَّفْرة، إن لم يكن ذهب إلى اليمن مرتين لغرضين مختلفين.

على أن صاحب الأغاني ذكر في أخبار جميلة أنها لما قضت حجها، سألها المكيون أن تجعل لهم مجلسًا، فقالت: للغناء أم للحديث؟ قالوا: لهما جميعًا. فقالت: ما كنت لأخلط جدًّا بهزل، وأبت أن تجلس للغناء، فقال عمر بن أبي ربيعة: أقسمت على من كان في قلبه حبٌّ لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة، فإني خارج. فعزم جماعة

---

(١) ذو سنن: ذو طرائق.

من الأشراف والشعراء على الخروج، فلما قدمت المدينة تلقاها أهلها وأشرافها من الرجال والنساء، فلما دخلت منزلها وتفرق الجمع إلى منازلهم، ونزل أهل مكة على أقاربهم وإخوانهم أتاها الناس مسلمين، فلما مضى لمقدمها عشرة أيام جلست للغناء، وقالت لعمر بن أبي ربيعة: إني جالسة لك ولأصحابك، وإذا شئت قعد الناس لذلك اليوم، فغصت الدار بالأشراف من الرجال والنساء، فابتدأت جميلة فغنت:

هيهات من أمة الوهاب منزلنا ... إذا حللنا بسيف البحر من عدن

فضجَّ القوم من حسن ما سمعوا، ودمعت عينا عمر حتى جرى الدمع على ثيابه ولحيته، وما رأوه كذلك من قبل.

وهذه القصة تدلنا على أن ابن أبي ربيعة كان لا يزال يلهو ويتبع النساء بعد قصيدته التي قالها في اليمن شوقًا إلى الحجاز، فلم يكن إذًا بالرجل الذي يقبل الرشوة من أخيه ليودع قرة عينه في الحياة!

وهناك فرض آخر لتوبة ابن أبي ربيعة، فقد ذكروا أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم تكن له همة إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص، فكتب إلى عامله على المدينة:

«قد عرفت عمر، والأحوص، بالخبث والشر، فإذا أتاك كتابي هذا فاشددهما واحملهما إليَّ».

فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر فقال له:

هِيهِ فلم أر كالتجمير منظر ناظرٍ ... ولا كليالي الحج أفلتن ذا هوى

وكم ماليٍ عينيه من شيء غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدُّمى

فإذا لم يلفت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفُلتون؟ أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شيء غيرك -ثم أمر بنفيه. فقال: يا أمير المؤمنين، أو خير من ذلك.

قال: وما هو؟ قال: أعاهد الله أن لا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء في شعر أبدًا، وأجدد توبةً على يديك. قال: أو تفعل؟ قال: نعم. فعاهد الله على التوبة وخلاه.

ولم تقف قصة هذا الشعر عند عمر بن عبد العزيز، فقد ذكروا أيضًا أن سليمان بن عبد الملك حج وهو خليفة، فأرسل إلى عمر بن أبي ربيعة فقال له: ألست القائل:

وكم من قتيل ما يُباء به دمٌ ومن غَلقٍ رهنا إذا الفَّه مِنَى

قال: نعم. فقال: لا جَرَم، والله لا تحضر الحج مع الناس هذا العام، وأخرجه إلى الطائف.

أفكان هذا الشعر بعينه شؤمًا على صاحبه إلى هذا الحد، فيُمنع من الحج مرة، وينفى مرة؟!

أما أنا فأستبعد ذلك، وأرجح أن أنصار بني أمية أرادوا أن يبالغوا في وصف خلفائهم بالحزم والغيرة على الحرمات، فصوروا ابن أبي ربيعة طريدًا لعبد الملك بن مروان[1] وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز.

---

(١) وفد عمر على عبد الملك، فأدخل عليه فسأله عن نسبه فانتسب له؛ فقال:

لا أنعم الله بعين عينا تحية السخط إذا التقينا

أنت لا أم لك القائل:

نظرت إليها بالمحصب من منى ولي نظر لولا التحرج عارم

فقلت أشمس أم مصابيح بيعة بدت لك تحت السجف أم أنت حالم

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ثم قال له: قاتلك الله فما ألأمك! أما كانت لك في بنات العرب مندوحة عن بنات عمك؟ فقال عمر: بئست والله هذه التحية يا أمير المؤمنين لابن العم على شحط الدار، وتنائي المزار.

وهذا ليس بغريب في بابه: فقد اخترع أشياع عمر بن الخطاب حكايةً جازت على الناس إلى اليوم، حتى أدخلها شاعرنا حافظ بك إبراهيم في قصيدته العمرية، وهي حكاية نصر بن حجاج؛ إذ زعموا أن عمر سمع امرأة تتغنى في هدأة الليل:

هل من سبيلٍ إلى خمر فأشربها ... أم هل سبيل إلى نصر بن حجّاج

فغضب وطلب نصر بن حجاج، فإذا هو فتى وسيم الوجه، أجمل ما فيه شعره، فأمر أن يُحلق لتُتَّقى فتنته، ولكنه نظر فإذا هو أفتن الناس وهو حليق، فأمر بنفيه من المدينة!

وأنا لا أشك في أن هذا من حديث خرافة، فما كنت لأصدق أن عمر بن الخطاب يفرُغ لهذه السفاسف أو ينفي فتى لا ذنب له إلا أنه جميل، وهو يعلم أنه ينقل فتنته إلى غير المدينة من أمصار المسلمين.

وقد استقصيت أخبار عمر بن أبي ربيعة لأحدد ما كان في حياته من الجوانب الجدية، فرأيت مثلًا أنه كان يشتغل بالدفاع عن قومه بني مخزوم، وأنه كان يقارع خصومهم، وله في ذلك حديثه المشهور يوم نازع اللهبي في المسجد الجامع[1]. ورأيت أيضًا أنه كان حريصًا مسرفًا في الحرص على الاستبداد بالحياة الأدبية: فكان يعارض جميلًا وجريرًا والفرزدق والأحوص ومالك بن أسماء، وهذا نوع من الجد لو دوِّنت أخباره لكان أمتع وأنفع من أخباره في أيام الطواف. ورأيت كذلك أنه تزوج غير مرة، وكان له بنون وبنات، وهذه شئون جدها جد، وهزلها جد، لو عُني بها الرواة لأرونا كيف كان يقابل هذا الشاعر مصاعب الحياة.

وله مع عبد الملك موقف آخر أشرنا إليه في المحاضرة الثالثة. وفي كلا الموقفين يتنكر عبد الملك ويقف من الشاعر موقف المسيطر الغضبان. ولهذا النحو من الحديث دلالته على حرص أشياع بني أمية في تصوير خلفائهم بصورة الجد والوقار في معاملة الغزلين من الشعراء.

(١) ص٨، ٩ ج١٥ من الأغاني، طبع بولاق.

وقد مرت بالقارئ إشارات إلى مواقفه مع جميل والفرزدق ونُصيب وكثير، وله معهم حديث آخر سيجيء في باب المُلح والفكاهات، فلنذكر هنا حديثه مع مالك بن أسماء، فقد كان مفتونًا بشعره، وكان يتشوق إليه منذ سمع قوله:

إن لي عنـــد كـــل نفحـــة بـــستا ... نٍ مـــن الـــورد أو مـــن الياسـمينا

نظـــرةً والتفاتـــةً أتمنـــى ... أن تكـــوني حللـــت فـــيما يلينـــا

فلما تلاقينا وتعارفا وتناشدا قال له عمر: ما أحسن شعرك لولا أسماء القرى التي تذكرها فيه! قال: مثل ماذا؟ قال: مثل قولك:

إن في الرفقـــة التـــي شـــيعتنا ... بجويريـــسما لـــزينَ الرِّفـــاقِ

ومثل قولك:

حبـــذا ليلتـــي بتـــلِّ بَوَنّـــا ... حيـــث نُـــسقى شرابنـــا ونُغنَّـــى

فقال له مالك: هي قرى البلد الذي أنا فيه، وهو مثل ما تذكره في شعرك من أرض بلادك. قال: مثل ماذا؟ قال: مثل قولك:

حـــيَّ المنـــازل قـــد دثـــرن خرابـــا ... بـــين الجـــوين وبـــين ركـــن كـــسابا

ومثل قولك:

مـــا عـــلى الرســـم بـــالبلين لـــو بيَّـــ ... ـــنَ رجـــع الـــسلام أو لـــو أجابـــا

وفي هذا الحديث نحوٌ من الجد في نقد الشعر، ونظن أنه كانت له اتجاهات أدبية في النقد لم يدونها الرواة؛ إذ صرفوا همهم إلى حياته الغرامية.

قلت إنه تزوج غير مرة، وكان له بنون وبنات، فلأذكر أني لم أستطع التثبت من عدد زوجاته ولا أبنائه؛ لأن الرواة أغفلوا الإفاضة في هذا الجانب من حياته الجدية،

فلم يبينوا كيف كان يعامل زوجاته، ولا كيف كان يربي أولاده، ولا كيف كان يتصرف في تثمير أمواله، وتقويم عبيده وإمائه، ولم يعينوا «الحوائج» التي ذكروا في غير موطن أنه كان يعتمد في قضائها على الخلفاء.

ومع أن الرواة حدثونا أنه هجر الشعر بعد الأربعين، فقد حدثونا أيضًا أنه نظر في الطواف إلى امرأة شريفة، فرأى أحسن خلق الله صورة، فذهب عقله عليها وكلمها فلم تجبه، فقال فيها شعرًا جزعت منه، فقيل لها: اذكريه لزوجك؛ فإنه سينكر عليه قوله. فقالت: كلا والله، لا أشكوه إلا إلى الله. ثم قالت: اللهم إن كان نوَّه باسمي ظالمًا فاجعله طعامًا للريح. فاستجيبت دعوتها إذ غدا يومًا على فرس، فهبت ريح فنزل فاستتر بسلمة، فعصفت الريح فخدشه غصن منها فدمِي وورم به ومات من ذلك. والاختلاق ظاهر في هذا الحديث.

ومن الرواة من حدَّث أنه مات في غزوة. والعجيب أن تدون حوادثه الغرامية بما رأى القارئ من التفصيل، ولا يتفق الرواة في حديثهم عن وفاته.

أفنراهم أنصفوا يوم رأوا الموت غير خليق بعناية الأحياء!